

مقاربة نقدية لمسألة الهوية عند داريوش شايعان

A Critical Approach to the Problematic of Identity in Daryush Shayegan

د. معمر قادم¹¹ جامعة حسية بن بوعلي الشلف الجزائر m.kadem@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2025/09/04 تاريخ القبول: 2025/11/24 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مقاربة نقدية لمسألة الهوية عند شايعان، الذي عمد إلى تفكيك التصورات السائدة حولها، ناقدا مفهوم الهوية النقية باعتباره وهماً يكرس الانغلاق ويقوم على تمجيد ماضي متخيل، مما يؤدي إلى رفض الآخر والانكفاء على الذات.

في المقابل، يطرح شايعان بدائل أكثر دينامية، من أبرزها مقولة الهوية الريزومية، المستلهم من فلسفة دولوز، والذي يفيد بتعدد الجذور وتداخل الانتماءات، مما يعكس واقع الإنسان المعاصر المتنوع، كما يشير إلى أهمية الهوية الكونية، التي تتجاوز الخصوصيات الضيقة وتسعى إلى تأسيس إنسانية مشتركة تقوم على قيم كونية مثل الحرية والعدالة والتعايش، ويخلص أخيراً إلى الدعوة إلى هوية منفتحة، قادرة على التفاعل مع المتغيرات دون أن تفقد عمقها، في انسجام مع متطلبات الحداثة والتعدد الثقافي، هذه المقاربة تتيح فهماً أكثر مرونة وتوازناً للهوية، بعيداً عن الانغلاق الإيديولوجي أو الذوبان الكلي في الآخر.

كلمات مفتاحية: الهوية، الهوية النقية، الريزومية، الكونية، داريوش شايعان

Abstract:

This study presents a critical reading of Daryush Shayegan's approach to identity, where he challenges traditional notions, particularly the idea of a pure identity—an illusion rooted in a glorified, imagined past that leads to cultural isolation and rejection of the other. As an alternative, Shayegan introduces the concept of rhizomatic identity, inspired by Deleuze, which reflects the plurality and interwoven nature of modern identities. He also emphasizes the value of a cosmic identity, one that transcends narrow cultural boundaries and promotes shared human values such as freedom, justice, and coexistence. Ultimately, Shayegan advocates for an open identity—adaptable and responsive to change, yet deeply rooted—capable of engaging with modernity and cultural diversity without losing its essence. This perspective offers a balanced and dynamic understanding of identity, moving beyond ideological rigidity or total assimilation.

Keywords: Identity, Pure Identity, Rhizomatic Identity, Cosmic Identity, Daryush Shayegan

*المؤلف المرسل: د. معمر قادم

1- مقدمة : المتأمل لفلسفة الهوية يقف لا محالة على ذلك المستوى من التعقيد والتشابك الذي يميزها بداية على المستوى المفاهيمي ، حيث تحيلنا إلى مشكلات فلسفية غاية في الغموض والتعقيد ، فضلاً عن كونها مفعمة بإشكاليات راهنية ، حضورها وديمومتها ميزة تتسم بها دون جل الإشكاليات الأخرى ، لم تفقد جدتها رغم تقادمها ، باعتبار مدى ارتباطها بمختلف الأبعاد الحيوية التي تميز إنسانية الإنسان ، خاصة ما تعلق منها بالكونية والعالمية ، الأمر الذي ضاعف من تعقيد المسألة خصوصاً على مستوى الثبات المفاهيمي .

ولئن تميزت الهوية بطبيعتها الدينامية التي تأبى إلا أن تكون ديمومة وصيرورة ، تأبى السكون والجمود ، فإن هذا ما أحالنا بشكل متواصل على مزيد من التحديد المفاهيمي لها ، فلا نكاد نستقر على ماهية إلا ويبرز فجر جديد لماهية جديدة أكثر تحديداً ودقة ، الأمر الذي من شأنه أن يخلق مسافة مفاهيمية ، وبونا شاسعا ، وهوة عميقة بين مفاهيم متعددة للهوية ، تنقلنا من مستوى الهوية الكلاسيكية - الساكنة - إلى مستوى جديد أكثر موائمة ومسيرة لروح العصر ، ألا وهو مستوى الهويات المتعددة - الحركية ، مما ساهم في تبلور تصورات متباينة لمسألة الهوية ، استتبعه صراع تيارات متنوعة تروم إثبات ذاتها على بساط البحث أولاً ، ثم على مستوى الواقع الحضاري ثانياً ، وفي خضم هذا السجال الفكري والحضاري تأتي منظورية شايفان ، الذي حاول من جهته تقديم تصور فلسفي متميز لمسألة الهوية ، يروم تجاوز التصورات التقليدية والمعاصرة على حدّ سواء .

الإشكالية: ما جوهر الهوية عند شايفان ؟ ما الذي يميز تصور شايفان لمسألة الهوية عن التصورات السابقة ؟ ما هي مستجدات منظورية شايفان للهوية ؟ إلى أي مدى وفق شايفان في طرحه لمسألة الهوية ؟

2- الهوية ايتمولوجيا المفهوم ودلالات المصطلح : المتتبع لماهية الهوية يدرك مدى تعقيد المفهوم وغموض المصطلح ، فضلاً عن مدى التشابك بينه وبين كثير من المفاهيم والمصطلحات المجاورة له ، والتي يتعذر الفصل بينها لشدة تداخلها ، بيد أننا سنحاول إزالة ذلك الالتباس والغموض من خلال ما يلي :

ليست الهوية اسماً عربياً في أصله ، وإنما اضطر إليه بعض المترجمين ، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط ، أي ارتباط المحمول بالموضوع ، وهو حرف في قولهم " زيد هو حيوان أو إنسان " (صليبا ، 1982 ، صفحة 529) ، وهوية الشيء وعينيته ووحدته ، وتشخصه ، وخصوصيته ، ووجوده ، كل واحد ، وقيل أن الأمر المتعقّل من حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة ، ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية (الحنفي ، 2000 ، صفحة 911)

والهوية عند البعض هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق ، لذلك قيل أن الأحق باسم الهوية من كان وجود ذاته من نفسها ، وهو المسمى بواجب الوجود والمستلزم للقدم والبقاء (صليبا ، 1982 ، صفحة 531)

وتتحدد الهوية عند لالاند (1867-1963) Lalande André بمعان متعددة أهمها :

أ- علامة ما هو متماه

ب- ميزة فرد أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متماه أو أنه " هو ذاته " في مختلف فترات وجوده " هوية الأنا " نحو التعرف إلى هوية فرد محكوم ستجريه المحكمة ، وعادة ما يشار إلى هذين المعنيين الأوليين بلا تمييز باسم هوية عددية (لالاند ، 2001 ، صفحة 607).

بناء على هذا فالهوية هي ذلك الكل المركب الذي تنصهر فيه جملة من العوامل تتفاعل فيها سمات وخصائص عقدية ولغوية ،ثقافية وأخلاقية ،عرقية وتاريخية ،عادات وتقاليد وسلوكيات، تنطبع بها شخصية الفرد والمجتمع والأمة، من خلال طابع متميّز، يثبت لها الفردية والمغايرة عن الآخر، وبذلك تتشكل المرجعية التي تعبّر عن ثقافته ودينه وحضارته .

كما يوحى مصطلح الهوية بجملة العناصر المرجعية التي تستوعب الأبعاد المادية والاجتماعية والذاتية المصطفاة التي تتيح إنتاج تعريف خاص للفاعل الاجتماعي، وهي بذلك مركب من العمليات والأطروحات المتكاملة التي تفسّر العالم، وتأخذ صيغة تعبيرية خاصة نطلق عليها النواة الهويةانية، وإلى هذا يمكن القول عموماً أن الهوية تطلق على "نسق المعايير التي يُعرف بها الفرد ويُعرّف، وينسحب ذلك على الهوية الجماعية والمجتمع والثقافة" (ميكشيلي، 1993، صفحة 09) .

3- المفاهيم المؤسّسة لفلسفة الهوية عند شايفان : تعدّ الهوية من المفاهيم المركزية التي استوعبت مجمل الخطاب الفلسفي عند شايفان ،وعلى الرغم من البساطة التي قد يبدو عليها المصطلح في التنظير الشايفاني، إلّا أننا نلمس بأنه على خلاف ذلك تماماً، فهو على درجة عالية من التعقيد والمشاكلة، فضلاً عن كونه بالغ التنوع من حيث دلالاته واصطلاحاته، إذ الهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة تامة الوجود بصورة نهائية إلى الأبد، بقدر ما هي حقيقة تتجسّد كما لو كانت كائناً يولد وينمو ويتكوّن ويتغيّر وينسج علاقاته المتميزة مع بقية المفاهيم المجاورة له، والتي من خلالها يتّقوم ويخرج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، ذلك ما سنتبيّنه من خلال ما يلي :

3-1- الهوية الأصيلة : تحيلنا الهوية الأصيلة إلى معانٍ متعددة للهوية الذاتية، التي عبّر عنها شايفان بمصطلحات متعددة، كالهوية النقية، الساكنة، التقليدية، وأحياناً المتحجرة، إذا كان بصدد نقد التمرکز الأنوي –من الأنا – للهوية الأصيلة، علماً أن شايفان لم يترك المجال لنقد أفكاره من قبل الآخرين، بل كان على الدوام يحيلنا على النقد الذاتي لأفكاره، حتى وإن كانت من صميم مشروعه الفكري أو مؤسّسة له .

يرى شايفان أننا بحدّثنا عن الهوية الأصيلة إنما نتحدث عن البعد الروحي الأصيل في كيائنا الوجودي، الذي يثبت مدى تميّزنا الهوياتي عن الآخر، على أن المقصود يتجاوز مستوى إحياء "العوالم الدفينة"، إلى النظر في النصف الخفي من الأشياء، وبإرجاع نصيب الروح والحالة الرمزية، إضفاء للتوازن على الأشياء مرة أخرى، وبغير هذا نكون مرضى مشتتين لا علاج لنا، إذ الاعتراف بمنزلة الروح لا يعدّ رجعية في الوقت الحاضر، بل بوسعه إكمال وجودنا وترميمه، وبعبارة أخرى بإمكانه إعادة كمالنا وفرديتنا النفسية لنا" (شايفان، 2016، صفحة 146) .

اعتمد شايفان المقاربة النقدية في معرض تحليله للهوية الأصيلة أو النقية، ففي مؤلّفه هوية بأربعين وجهاً، يبيّن أنها تستوعب مجمل التمرکز الهوياتي، الذي يحوي داخله "أية هوية موروثة من الأسلاف، تفرض نفسها على الإنسان من الخارج، ونحن نكسبها من دون أن نتاح لنا أية فرصة للاختيار أو الانتقاء، لنا تراث ينبوعه خارج الإطار الثقافي (هوية فطرية)، إنه تركة وصلتنا من الطبيعة ومن مشتركاتنا مع الآخرين، هذه عناصر فوق الثقافية تتصل بالبيئة الطبيعية والجسم والركائز الوجودية للإنسان" (شايفان، 2016، صفحة 91) .

وهكذا فنحن باكتسابنا معارف متعددة من منابع متنوعة، نقية وأصيلة، نثري الكيان الهوياتي المتمركز حول الأنا الشخصي - الفرد والجماعة - مما يعزز وحدتنا، ويقوي انتماءنا إلى الأصل المتميز، الثري بكل المعاني الروحية المختزنة في الذاكرة الأزلية للأمة، خاصة إذا كانت هذه الأخيرة مشحونة بمختلف القيم الدينية واللغوية والأخلاقية والثقافية التي تضفي عليها صبغة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان .

لقد استعار شايفان فرضية فرنسيس بيكون (1561-1626) Francis Bacon حول أصنام الذهن، بيد أنه وظفها عكسيا بما يخدم مشروعه الفكري ولو بصورة مؤقتة، فإذا كان بيكون قد كشف عن الأثر السلبي التعطيلي لتلك الأصنام في التفكير العلمي، داعيا إلى ضرورة اجتثاثها وتحطيمها، ومناهضة كل ما يرمز للذاكرة، فإن شايفان سيتخذ موقفا عكسيا- بصفة مرحلية فقط - حيث ذهب إلى أن ما يسميه بيكون الأصنام الذهنية ويشجبه إنما هو " الأمانة في الفكر الشرقي التي تشمل رسالة مضمرة، تبقى مصونة في الذاكرة القومية، ولا يمكن أن يحافظ الشرق على أصالته ما لم يحتفظ برموز مفاتيح تلك الأمانة ويتواصل مع ذاكرته الأزلية، وأن دعوة بيكون إلى اجتثاثها تعني اجتثاث الذاكرة الإنسانية، أي تدمير مستودع الصور الأساطيرية، التي تشمل الحكمة الخالدة الفياضة، وأن الانقطاع عنها يفضي إلى الانقطاع عن الجذور والاعترا ب الذي يقذف صاحبه إلى هاوية العدمية " (شايفان، 2016، صفحة 15) .

بناء على هذا اعتقد شايفان المهمة الجوهرية التي يُفترض أن يُناط بها المثقفون في آسيا هي العمل على "مقاومة وباء الغرب، بصيانة هويتهم الثقافية عبر العودة إلى ذاكرتهم الأزلية، وإعادة اكتشاف الرسالة المضمرة في تلك الذاكرة، وتعني الذاكرة الموروث الذي لا يرتبط بشخص معين، بل هو ذو طابع اجتماعي، يشكّل الذاكرة القومية لكل مجتمع، وهذه الذاكرة تكون أنساب وجذور ذلك المجتمع " (شايفان، 2016، صفحة 18)، ومن هنا كانت الذاكرة الأزلية سبيل التواصل مع مختلف الأحداث التاريخية التي تتسم بكونها أساطيرية وأزلية، على أنها -عند شايفان- تمثل مستودعا أصيلا للكينونات التي تتعالى على الزمان ذاته بأبعاده الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، إضافة إلى أن الرسالة المنبثقة عنها هي التي تعمل على بناء إنسانية الإنسان، لأنها ليست في الأساس "ثمرة حركة التاريخ، ولا تستند إلى أية ركيزة أيديولوجية ولا أية قاعدة أنتروبولوجية، إنما إنسانيته الحقيقية في أن تكون له بعيدا عن ضجيج الحياة ولغط الزمن أذن واعية لرسالة تتفتح وتزدهر على أجنحة الذاكرة الأزلية، ما يسمونه في الشرق انعدام الحركة التاريخية وجمود التّقانة وعبادة الماضي هو في الحقيقة وفاء للذاكرة الأزلية" (شايفان، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، 2007، صفحة 48)

استهجن شايفان -مبدئيا- وصف الشرق بأنه ساكن متحجّر، يقدّس الماضي، لأن ذلك يعني لديه الوفاء الأبدى للشرق لذاكرته الأزلية، وليس تقوقعا أو جمودا كما يراه الآخر الغربي، وهكذا "مُجّدت الهوية الثقافية وقُدّست القيم الموروثة، وقُدّم شعار عودوا إلى منابعكم الذاتية وإلى ذاكرتكم على أساس أنه الدواء الناجع لمرضى التغريب" (شايفان، ما الثورة الدينية -الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، 2004، صفحة 164).

بيد أن شايفان سرعان ما يعيد النظر في هذا التصور الهوياتي الذي تركز حول الأنا النقية الأصلية التي تستمد كينونتها وقوتها من الإرث الثقافي والحضاري، محاولاً في هذه المرحلة إثبات عدم وجود لنقاء هوياتي، ولا لأصالة أصلية، لأن ذلك أصبح عنده مجرد وهم من الأوهام التي ينبغي تجاوزها وتحطيمها .

لقد أصبح شايفان يؤمن بأن المعاناة الهوياتية للبشرية في الزمن المعاصر، تعزى إلى الهوية المعاصرة ذاتها، فلم تعد مجموعة رتيبة من القيم والمثل الثابتة والقطعية، بقدر ما أصبحت تتجلى من خلال تمدد يتسع شيئاً فشيئاً، ليشمل الكون برمته، من هنا لم هنا مجال للحديث عن هوية نقية رتيبة، نحو الهوية المنبجسة من شعب معين أو دين بعينه، ولا بعرق محدد أو إرث ثقافي وتاريخي واحد، لأن كل ذلك مدعاة للانغلاق والتقوقع على الذات، وهو ما من شأنه أن يقودنا إلى "أسوأ من ذلك، إلى يباس هوياتي، حيث تنعزل في عالم متمركز حول ذاتها، وستبقى وحيدة في قاعة الطريق" (شايفان، الهوية والوجود -العقلانية التنويرية والموروث الديني، 2020، صفحة 32)

رفض شايفان التمسك الأعمى بالإرث الثقافي والانغلاق على الأصول، معتبراً أن في ذلك مطية لبروز الهوية الاقصائية، التي ترفض الآخر، بل وتعدمه وتقصيه تماماً، علماً أن كل هوية إقصائية ليست إلا " بحثاً عبثياً عن النقاء الأصلي، وذلك أيّا كانت الأقنعة التي ترتديها، هي أشبه بإغواء فاتن ومضلل في آن، ألا نكون في كالهارب من الرمضاء إلى النار ومن الجمودية إلى الظلامية، عندما نرغب في العيش على هامش العالم، وعندما نبحت عن أصول خيالية، ونتحصن خلف أساطير العصور المؤسّسة " (شايفان، الهوية والوجود -العقلانية التنويرية والموروث الديني، 2020، صفحة 33)، وبهذا انتهى شايفان إلى أن الواقع المعاصر غدا مبعثراً، ولم يعد هناك مجال للحديث عن الهوية النقية -الأصلية - التي اختفت ولم يعد لها وجود موضوعي، بسبب انهيار العوالم المؤسّسة لها، فضلاً عن أنها إذا تكبّلت بقيود ثقافية نقية وخالصة -كما تسمى- فإنها ستؤول غالباً إلى تحجّر هوياتي .

2-3 - الهوية الجذمورية (الريزومية): يعود إطلاق كلمة جذمور **rhizome** المعروفة في علم النبات وإعطائها طابعا فلسفيا إلى جيل دولوز **Gilles Deleuze (1925-1995)** و فيليكس غوتاري **Félix Guattari (1930-1992)**، علماً أن هذا المجاز الدولوزي "يحقق إشارة كثيفة الدلالة ويدعو إلى التخلص من نزعة البحث عن الجذور والأصول الأولى، كما يشير إلى التملّص من لهفة بلوغ النهايات وإحقاق الغايات، حيث من سمات الجذمور الأساسية عند دولوز الاتصال والغيرية والتعددية التي لا تميل إلى أصل يجمعها، ومن هذه الإرهاصات نهل شايفان المصطلح وأردفه بالهوية" (طيرشي، 2022، صفحة 224) .

يحولنا الريزوم عند شايفان إلى الساق الدفينة في التراب من بعض النباتات وهي المسؤولة عن نمو النبات، حيث ينمو الريزوم كل عام بمقدار معين في الاتجاه الأفقي، فتظهر منه أجزاء جديدة، لذلك " لن يموت الريزوم حتى لو قطع بآلات زراعية، وذلك خلافاً للجذور، وإنما تتولّد عنه عدّة نباتات، لأن الريزوم نظام يفتقد المركزية والتراتبية، خلوّ من التوجيه والقيادة، أي أنه أسلوب للربط بين أمور متكرّرة عديدة تتغير ماهيته بموازاة ازدياد ترابطاته" (شايفان، هوية بأربعين وجهاً، 2016، الصفحات 28-29)

إن مفهوم الرابطة أو العلاقة ذو صلة وثيقة بالهوية الريزومية وتقبل الآخر والاحترام المتبادل للعناصر غير المتجانسة، وهي إذ ترتبط ببعضها إنما تخلق مزيجاً أو أرخبيلاً متنوعاً تنصهر فيه مجموعات متعددة من الأشكال

والعناصر التي لم تكن متجانسة، لذلك فنحن اليوم عرضة لعملية أكيدة من التمازج ولو بدرجات متفاوتة، يقول شايفان: "أعتقد أن العالم اليوم يمر بعملية اختلاط، أي أن ثقافات العالم تترايط بشكل فائق السرعة، وواع تمام الوعي، إنها تتلاقح مع بعضها وتتمحور في إطار صدامات باهظة التكاليف وحروب ضارية، وأيضا في إطار تحركات زاخرة بالوعي والأمل...إننا حين نقيم علاقة مع العالم نقتنص بقايا كل الثقافات ونتخذها لأنفسنا تراثا" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 110).

لقد تأكد لدى شايفان بأن الريزوم متنوع ومتعدد بطبيعته، على أن هذه التعددية تقتضي بالضرورة التحرر من مجمل قيود الوحدة والتمركز، لأن النظام الذي يتأسس على تعدد القطع يمثل ريزوما يختلف عن الجذور وتفرعاتها، إذ يتجلى الريزوم في صور متعددة، منها التمدد السطحي في كل الاتجاهات، ومنها النتوءات والغدد، إذا فالريزوم هو "عامل الترابط والتوليد، وبمقدوره صناعة شبكة غير متناهية، فكل نقطة منه بإمكانها التلاحم مع أية نقطة أخرى منه، وخلافا للشجرة التي تضرب جذورها في مكان محدد، فإن الريزوم حتى لو كُسر أو تمزق، فإن بوسعه استئناف حياته والنمو في جهات أخرى، ومع أنه متكون من طبقات وبحاجة إلى مكان، إلا أن بمقدوره الانفصال عن الأرض والسير عليها وإيجاد شبكات ارتباط جديدة" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 118).

تحلينا الهوية الريزومية على التعدد والتنوع الهوياتي اللانهائي واللامحدود، حيث استوحى شايفان هذا التصور الجديد للهوية من روح العصر، الذي غلبت عليه الانطولوجيا المهشمة، فضلا عن تزامن الثقافات المتنوعة، حتى كأن العالم في هذا العصر أصبح شبكا اصطلاح عليه الهوية بأربعين قطعة.

يرى شايفان أن هذه الهوية تتميز بكونها "مركبة، منسوجة من شبكة من الترابطات الدقيقة، وكأنها ثوب يخاط بأربعين قطعة من قماش ذي ألف لون، ذلك التعددية الثقافية واختلاط القوميات وتمازج الأفكار والتهجين المضطرد كلها ظواهر تجعلنا مستعدين لهوية مركبة، حيث تبدو الهوية في هذه الثقافات عاملا ونتيجة في الوقت نفسه، للون من التمازج اللغوي والعرق، أي أنها تعمل كالريزوم" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 27)، ومن هنا تتخذ العلاقات على المستوى الثقافي شكلا ريزوميا أو جذمويا، حيث ينبثق نموذج مُرقّع أو مُخرّم تصطف فيه مجمل الثقافات بجوار بعضها بطريقة موزاييكية خالقة في ما بينها من الفراغات مساحات تلاقح وتمازج ثقافي غاية في الثراء والتنوع، تتجلى معالمه بوضوح من خلال هوية موزاييكية حركية، تستمد تميزها وقوتها من خلال تعدديتها وتنوعها، فضلا عن حيويتها وديمومتها وقابليتها للتغير المستمر، وكذا اتصالها أو تواصلها مع بقية الجذامير الهوياتية الأخرى.

وإذا كان التعدد الهوياتي قد أصبح واقعا معاشا في عالمنا المعاصر، وعلى المستوى الخارجي، حيث قد تتواءم الهويات المختلفة وغير المتجانسة، كما قد تنصهر في بوتقة واحدة، فإن هذا ما من شأنه يحيلنا على الهوية الأنوية المتمركزة حول الذات، لكنها في الوقت ذاته تعيش كل الهويات الأخرى، أو أنها تحوي في داخلها جملة هويات مختلفة، ذلك ما دعا شايفان إلى الاستئناس بفكرة الباحث الايطالي إري دي لوكا (Erri De Luca 1950 -) الذي تحدث عن إمكانية تصور عدة شخصيات داخل شخصية الإنسان الواحد، لذلك فكل واحد منا -بحسب

شايفان- يُخفي داخله جماعة من الناس، على الرغم من أننا نركن " مع مرور الوقت إلى تبديل هذه الكثرة وحدة أو فردية جوفاء، فنحن مرغمون على الظهور كفرد واحد له اسم واحد، ونتحمل مسؤوليته وحده، لهذا فإننا نُعوّد الأشخاص المتنوعين في داخلنا على الصمت والسكون، بيد أن الكتابة تساعدنا على إعادة اكتشافهم" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 107) .

اعتقد شايفان أن الأنا الواحد المتمركز حول الأنا ذاته -كما يبدو - قد يكون في ذاته متعددًا حاملًا هوية متكثرة أو بتعبير شايفان نفسه الهوية المتكثرة، بيد أن فكرة وجود مجموعة من الناس داخل كل واحد منا أو وجود شخصيات وصور متعددة في داخل شخصيتنا ذاتها تعبر بوضوح عن هذا الإنسان المعاصر الذي لم يعد في استطاعته حفظ كينونته داخل حدود هوية محدّد -كما كان الشأن مع الهوية الأصلية أو النقية - ومن ثمة كلما " شددنا على هويتنا وكلما رفعنا أصواتنا بالانتماء إلى هذه الجماعة أو تلك الأمة، أفصحنا عن هشاشة هويتنا أكثر من ذي قبل (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 107) ، لأن الهوية لم تعد واحدة، وحيث اختفى المتمركز حول الذات الواحدة ، فقد حل التكوثر والتعدد الهوياتي محله .

لم يعد شايفان يؤمن بفكرة الهوية ، لقد أصبحت وهما من الأوهام، حل محلّها التعدد والتكوثر، صار الحديث إذن عن هوية مركبة، تستوعب في داخلها هويات متعددة ، بل وأشخاص متنوعون متعدّدون داخل الشخصية الواحدة ، وإن كنا " لا نكتشف الجماعة التي بداخلنا فقط ولا ندرك أن وجودنا عبارة عن مجموعة من أشخاص متنوعين فحسب ، بل نتنبّه أيضا إلى أن هؤلاء الأشخاص هم إدراكات وأنماط واعية، ينتمي بعضها إلى زمن بعيد، إلى أزمنة ظهور الحضارات السحيقة، لذلك فهي تذكرنا بأطوار تكاملنا عبر الزمان، إننا نشعر كأننا نفتش عن الكأس المقدس، برفقة الأصوات المبعوثة من رقدتها" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 108) ، هذا ما يُعبر بوضوح أن التعدد الهوياتي صار واقعا حتميا، حيث غدت الهوية تستوعب في ذاتها مجمل أبعاد الزمان، الماضي البعيد، والحاضر المعاش، بل وحتى المستقبل الذي لم يأت بعد، فلا مراء إذن أن التعددية الثقافية واختلاط القوميات وتمازج الأفكار، والتهجّن المضطرد، كلها ظواهر تجعلنا فعليا على استعداد دائم لهوية مركبة، في صيرورة وديمومة لا تعرف الثبات أو السكون .

وهكذا نجد أن الفضاءات التي تصنعنا فعليا ، هي فضاءات متعددة، غير نقية، ولا أصلية، مختلفة المنابع والجذور، فلم تعد أصولنا واحدة، ولم يعد في مقدورنا أن نعيش لوحدها، في معزل عن الآخرين، في أرض مغلقة، إننا بحسب شايفان " ريزومات متصلة بالآخرين وثقافتهم وعوالمهم ومداركهم المتنوعة، هذه الحال تجعلنا حلزونات تحمل بيوتها على ظهورها، بمعنى أننا ننمو في فضاءات مفتوحة، وأسلوب حياتنا يحدد طبيعة رؤيتنا، إننا بحسب الأواصر التي ننشئها مع المجالات الثقافية، نستطيع التوضع في المكان بمناخ مختلفة" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 122).

إننا متعدّدون متنوعون ، تعدد وتنوع العالم المعاصر ذاته، تُشكّلنا الصيرورة الأبدية، فتصنع منا وجودا هوياتيا منفتحا على كل شيء، وبالنسبة فنحن على الدوام نسكن مفترق طرق التأويل، نمذّ أيدينا بكل الاتجاهات التي تخترق خارطة الزمان، ممتدة من الماضي المعرفي - ولعل هذا ما يمكن أن يفسر الهيمنة التراثية - إلى المستقبل

الذي تزدهم فيه كل متغيرا الوجود، وهكذا، يتمثل وعينا وبسبب قابليته للانفصام، كما لو كان ذاكرة تستوعب داخلها مجمل أطوار المعرفة، ومن هنا يتوجب إعادة تقييم هذه الأطوار والمراحل بغية إسكانها في الفضاء الخاص بها، ذلك أن " فن تركيب الفضاءات غير المتجانسة وإقامة نظام يربط بينها ،هو باعتقادي طريق جديد" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 134) ،ولعل هذا ما دعا شايفان إلى الاعتقاد بالاستحالة الهوياتية الدائمة، والتي هي في ذاتها تجسيد واقعي لصيرورة الوجود، يتساوى في ذلك الوجود الإنساني والوجود الكوني .

3.3 – الهوية الكونية: تعتبر الهوية الكونية امتدادا طبيعيا للهوية الجذمورية، وهي بالتالي تمثل النقيض الطبيعي للهوية الساكنة أو الأصيلة، تقوم على رفض الجمود والرتابة والنمطية، تنبذ فكرة الحدود المضبوطة ،فلا حدود لها، تتجاوز المساحة أو الرقعة الجغرافية الواحدة، فلا حدود ولا مساحة لها، تأبى الركون إلى الماضي وحوادث التاريخ، فلا زمان لها، كما أن لها من القدرة ما يجعلها تتجاوز حدود الزمان والمكان معا، تتأسس على الفكر المتحرك السيار، والتهجن وكذا التمازج والتلاقح بين الثقافات والحضارات .

يحيلنا الحديث عن الهوية الكونية إلى رؤية معاصرة للإنسان، تقوم على ثراء وتنوع غير مسبوق في الطبيعة الإنسانية، وهو بالتالي، حديث عن الإنسان المتعدد الأبعاد والهويات، ذلك الإنسان الذي يمتلك القدرة المطلقة على التأليف والتركيب وإعادة التنظيم، ولو بين المتناقضات وغير المتجانسات، بفضل المصادر الأبدية التي أُتيحت له على إثر العلاقات الثقافية والحضارية، حيث أصبح بإمكانه بناء تصورات ورؤى جديدة، سمحت له تشكيل نماذج علاقات جديدة، أضفت على العالم المعاصر صبغة كونية، تجمع بين الخصوصيات المحلية والأبعاد العالمية، فذلك هو الإنسان الكوني وليد الحضارة المعاصرة، ولعل ذلك ما قصده شايفان بقوله: "علينا أن نضيف إلى هوياتنا -الله أعلم كم عددها - هوية أخرى تربطنا بسائر البشر في العالم، بعيدا عن الخصائص العرقية والدينية والثقافية الخالصة" (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 63)

بيد أن شايفان الذي أسس للتعددية الهوياتية، ودافع عن ريزومية الهوية ، وانتهى إلى الهوية الكونية، لم يلبث -كما هو شأنه دوما- أن تدارك الأمر، وكأن الحنين عاوده إلى الماضي، حيث الهوية النقية الأصيلة ،التي أسس لها في بداياته الأولى، إذ نجده يوجه نقدا لاذعا للهوية الريزومية والكونية على السواء، فنحن -بحسبه- لا نستطيع إنكار أننا خسرنا نقاءنا من الناحية الذهنية والنفسية على حد سواء، خاصة بعد أن غدونا جذامير أوريذومات مبعثرة بلا مركز ولا محور، فصرنا مهددين في كينونتنا، و عرضة لمختلف التحولات والتطورات المضطردة " وكأننا نُصعق بتيار كهربائي بإمكانه تفجير القدرات اللانهائية الكامنة في أعماق كيانتنا في كل لحظة ...كما الفضاءات المنوعة التي تخلع علينا ثيابها ذات الأربعين قطعة، أدت إلى أن نكون رغم إرادتنا منفيين أبديين نترقب على الدوام أجراس تقررها واحات السراب في البقاء " (شايفان، هوية بأربعين وجها، 2016، صفحة 123) .

وهكذا عرف الإنسان المعاصر حضارة جديدة فارغة من أي خيال أخلاقي أو قيم جديدة، بوسعها أن تحدث انقلابا وجوديا، لكن، مع ذلك، ترتفع من كل زاوية من زوايا الوجود أصوات متعددة، تطالب بالإرث الثقافي القديم، وتتوخى استعادة حقوق الهويات المنسية، مطالبة ببعث الأحلام التي دُفنت في تربة النظام العالمي، تلك هي الأحلام المبعوثة، التي تأتي من ثقافات وعصور مختلفة، فضلا عن أنها وُلدت من رحم أنساق وجودية وحياتية متباينة .

لقد أضاع العالم الذي نعيش فيه بوصلته وطريقه، وما عاد يعلم كيف يسير وإلى أين يتجه، لم تعد هناك معايير أو أصول مرجعية، واضطربت المعايير الناعمة للحياة والضابطة لتلك الفوضى الصاخبة في الأفكار والصور المبعثرة، التي أصبحت "تدساب حيث شاءت، فتطهو خلطة كثيفة، ليس بمقدور أي إنسان تشخيص طعمها الحقيقي" (شايفان، هوية بأربعين وجهاً، 2016، صفحة 50)، ذلك ما يمكن التعبير عنه بالفوضى الهوياتية، أو التيهان والنسيان الأنطولوجي للإنسانية في العالم المعاصر.

4- التصنيف والوهم المزدوج : يمثل التصنيف مقولة مركزية في فلسفة الهوية عند شايفان، وهو يعني تلك العملية اللاواعية التي يتم من خلالها التأسيس للوصل غير المشروع بين نموذجين للتفكير أو المعرفة غير المتطابقين، أو هو محاولة لوصل عالمين متباعدين، تمهيدا لدمجهما في الكل المعرفي المتناسق، حيث يسعى التصنيف إلى " المصالحة المعرفية بين جذرين متنافرين شكلا، القديم والجديد، أي أنه يقوم على مطابقة الأفكار – التي ليس لها أي مقابل في الواقع – على الحقائق والوقائع الاجتماعية، وبذلك فهو بمثابة قشرة طلاء رقيقة تغطي خشونة الأشياء، ويمكن حكّ سطحها واكتشاف نواقصها وعيوبها " (شايفان، النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا، 1991، صفحة 94)

اعتقد شايفان أن التصنيف يمكن أن يجري وفق نموذجين أو طريقين، يبدو بأنهما متعاكسين، غير أنهما في الواقع وبحسب نتائجهما تبدو واحدة نسبيا، حيث يمكنه أن يصقّح " إما خطابا جديدا –حديثا- فوق مضمون قديم –تراث- وإما على العكس، خطابا قديما- سلفيا- فوق صميم جديد، في الحالة الأولى سنحصل على التفرنج أو التفرين، نظرا لأن الحداثة ذات ارتباط بالغرب، وفي الحالة الثانية سنحصل على التأسلم، وستؤولان مع إلى الظاهرة نفسها، الاختلال...سنكون أمام نظرة مبتورة ملتوية ذات رؤية متقلبة وطائشة " (شايفان، النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا، 1991، الصفحات 95-96) .

وهكذا سنكون إزاء وضع هويتي مأزوم، فلا نحن تمكّنّا من المحافظة على هويتنا الأصيلة، ذات المنابع التراثية النقية، ولا نحن استطعنا الولوج إلى العالم الجديد، ذي التعدد والتنوع الهويتي، والمؤسّس على معطيات الحداثة ومستجداتها، وبعد أن تملّكنا الخوف من الاندماج في خارطة الإبداع الحداثي، وأثرنا السلبية اتجاه الآخرين، فقد تركنا الأمور تجرفنا، ولم نعد قادرين على الإمساك بمقاليد مصيرنا، ومن ثمة بقينا " عمليا على الضفة الأخرى من النهر، بين ما كان يجري في العالم، وما كان يدور في رؤوسنا، كانت هوة سحيقة قد انحفرت...العالم في خلال ذلك، كان قد تبدل، وكان التاريخ قد تقدم، وكانت بيئتنا المألوفة قد انهارت، ونحن قد رمينا أنفسنا خارج أرض البشر، فلا نحن في أرض الأجداد، ولا نحن في أرض السادة الجدد" (شايفان، النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا، 1991، الصفحات 25-26)، فلم نعد قادرين على استيعاب تيار الأحداث الواقعية المتسارعة، ولا نحن فهمنا حركة التاريخ، يقول شايفان: " بكل أسف لقد كنا مخطئين، لأننا غبنا عن موعدنا مع التاريخ" (شايفان، النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا، 1991، صفحة 26) .

الهوية المأزومة، تلك هي حال الإنسان المعاصر، الذي تنعكس عليه شخصيتنا الممزقة، ذلك ما يتجلى من خلال ازدرائنا لعلم نعتبره ماديًا، لكننا لا نستطيع الاستغناء عنه، أو من خلال اكتفائنا بتراث محتضر-بحسب شايفان –

يبدو " لا زمنيا أكثر فأكثر في عالم شديد التطور، نريد أن نكون حديثين وبدائيين، ديمقراطيين واستبداديين، دنيويين ودينيين، متقدمين ومتأخرين عن الزمن" (شايفان، النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا، 1991، صفحة 32) ، تلك هي إذن، الهوية الهشة في أبشع صورها التي عرفها الإنسان المعاصر، والتي عبر عنها شايفان بقوله: "إننا شبّهون بغراب مثنوي المفتون بمشية الحجل الأنيقة، يحاول تقليدها، وبعد محاولات عسيرة وفاشلة، ينتهي إلى نسيان مشيته، هذه هي الحال التي وصلنا إليها" (شايفان، أوهام الهوية، 1993، صفحة 78)

أما الوهم المزدوج فيمثل الفكرة الجوهرية التي عالجهَا شايفان في كتابه أوهام الهوية، والذي قدم فيه تحليلا متكاملا لرؤيته الفلسفية، التي استوعبت جملة مقولات فلسفة الحضارة من منظوريته الخاصة، وكان من أهمها مقولة الوهم المزدوج، حيث اعتقد شايفان أننا أصبحنا نجسد وضعية التائه في البیداء، يرى كل شيء، غير أنه لا يرى الطريق الصواب الذي يهتدي به إلى برّ الأمان، وعلى غرار رؤيته في التصفيح، يذهب إلى أننا في مفترق طرق معتم، لأننا نؤمن من جهة بأننا " نحافظ على هويتنا الثقافية، ومن جهة أخرى، نعتقد أننا دخلنا في روح الحداثة...إن مهمتنا تزداد صعوبة لأننا نصطدم بعقبتين، استلاب متزايد حيال الذات وحيال القيم الكبرى التي كانت تتمحور حولها نظرتنا إلى العالم، يلي ذلك عدم إدراك إضافي لروح الحضارة الغربية، عقبة مزدوجة، أسمها وهما مزدوجا " (شايفان، أوهام الهوية، 1993، صفحة 36) .

يرى شايفان أن شخصية الإنسان المعاصر صارت متعلقة بمفهوم الأزمة الأنطولوجية التي ضربت هويتنا وكياننا في الصميم، ذلك ما يتجلى في روح شايفان نفسه ،الذي عبّر في كثير من الأحيان عن مدى تيهه في هذا الوجود المبعثر الأركان، ذلك ما نستشفه بوضوح من خلال اعترافه في أوهام الهوية بمدى تعدديته وتكثّره، فضلا عن الثنائية التي تتنازعها، والتي تجعله في حيرة من أمره، بين الحنين إلى ماضيه الذي هو جزء من كيانه، وبين حاضره ومستقبله الذي يستشعر في قرارة نفسه بمدى تعلقه أو انتماءه إليه، يقول معبّرا عن هذه الحيرة: " المداخلة التي سأتلوها عليكم نقدية إزاء هذا الغرب الذي أحب والذي أدين له بجانب كبير من تكويني الفكري، والذي علّمني كيف أفكر؟ وكيف أطرح القضايا؟ وكيف أسأل الأشياء؟ وسأكون نقديا إزاء هذا الشرق الذي تضيق رقعته الجغرافية شيئا فشيئا، والذي أنتهي وأحسن بحضوره كأرض منسية في أعماق نفسي، ربما لأنني لا أنتهي إلى هذا ولا إلى ذاك " (شايفان، أوهام الهوية، 1993، صفحة 35)

بناء على يكون شايفان قد قدّم لنا تشخيصا متكاملا للشخصية الممزّقة للإنسان المعاصر، ولهويته المأزومة ، غير أنه قد تمكن أيضا من تقديم الترياق المناسب لداء التمزق والهشاشة الهوياتية ، ألا وهو التمتع بالروح النقدية، التي تمثل أس كل تقدم وراقي حضاري، فضلا عن كونها مفتاح المحافظة على الإرث الثقافي، وسبيل التمسك بالهوية الحقيقية، التي لا سبيل لحمايتها والمحافظة عليها إلا بالانفتاح على الآخر، ومن خلال التواصل الايجابي والتفاعل الحقيقي مع شركاء الوجود ،بما يتيح لنا أن نكون فعلا – من الكينونة – فعّالين في هذا العالم الذي أصبح بوتقة انصهرت فيها كل المظاهر الكونية، المتجانسة منها وغير المتجانسة، في صورة بانورامية موزاييكية، تجسّد فعليا كينونة الإنسان الكوني المعاصر.

5- خاتمة : يمكن الوصول في نهاية هذه المقاربة النقدية لمسألة الهوية الشايغانية إلى جملة من النتائج، نحسبها في غاية الأهمية، أبرزها الوعي الشايغاني الذي اتسم بروحه النقدية البناءة، حيث تمكن شايغان من بلورة منظور نقدي مغاير لمجمل التصورات السابقة عليه، تأرجحت تأويلاته الفلسفية لمسألة الهوية بين التصدي للآخر-الغرب- وبين الدعوة إلى الاستيعاب الاسقاطي للمقولات المركزية الغربية على ضوء الوعي النقدي المتحرر، بعيدا عن الميوعة والانهار السليبي، ومن ثمة تمكن من بناء أنموذج للتفكير، ثري ومتنوع، حمّالا لمختلف أوجه الخطاب الفلسفي المتحضر، الذي ينبذ التعالي والسيطرة على الآخر، وهي الروح التي اتسمت بها منظورية الخطاب الغربي، كما يرفض التفوق على الذات والانغلاق التام الذي يفقد الهوية حيويتها وهويتها ذاتها .

بناء على ذلك يبدع شايغان صياغة مقولاته المركزية، حيث يبني أطروحته الجوهرية التي تتضمن تجاوز حدود الهوية النقية أو الأصيلة إلى الهوية الريزومية، فالهوية الكونية، وصولا إلى الهوية المنفتحة أو المرنة التي تجتمع فيها كل الهويات السابقة، بما هي تلك الهوية المتعلقة أو المشدود بقوة نحو التراث، والمنفتحة في الوقت ذاته على الراهن والمستقبل، ومن هنا، يدرك شايغان أن ما يقي الهوية من التخلف والتفوق على الذات هو مقدرتها على التفاعل الحيوي مع بيئتها ومحيطها، حيث يتوجب عليها الانفتاح الواعي، من خلال العمل على التأسيس لرؤى ومنظوريات، تؤهلها للاستجابة لمجمل التحديات الراهنة، كما سيكون في إمكانها المحافظة على هويتها وخصوصيتها، بيد أن ذلك لن يكون على حساب القابلية للتجدد والتطور الذي يؤسس للإنسان العالمي أو الكوني.

6- قائمة المراجع:

- أليكس ، ميكشيللي. (1993). الهوية (الإصدار ط 1). (علي وطفة، المترجمون) دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعة.
- أندريه ، لالاند. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية (الإصدار ط 2، المجلد 1). (خليل أحمد خليل، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
- جميل، صليبيا. (1982). المعجم الفلسفي (الإصدار د ط). بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- داريوش شايفان. (2007). الأصنام الذهنية والذاكرة الأتلية (الإصدار ط 1). (حيدر نجف، المترجمون) بيروت لبنان: دار الهادي.
- داريوش شايفان. (1991). النفس المبتورة - هاجس الغرب في مجتمعاتنا (الإصدار ط 1). بيروت لبنان: دار الساق.
- داريوش شايفان. (2020). الهوية والوجود -العقلانية التنويرية والموروث الديني (الإصدار ط 1). (جلال بدلة، المترجمون) بيروت لبنان: دار الساق.
- داريوش شايفان. (1993). أوهام الهوية (الإصدار ط 1). (محمد علي مقلد، المترجمون) بيروت لبنان: دار الساق.
- داريوش شايفان. (2004). ما الثورة الدينية -الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة (الإصدار ط 1). (محمد الرحموني، المترجمون) بيروت لبنان: دار الساق.
- داريوش شايفان. (2016). هوية بأربعين وجها (الإصدار ط 1). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
- عبد المنعم الحنفي. (2000). المعجم الشامل في مصطلحات الفلسفة (الإصدار 3). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- كمال ، طيرشي. (2022). مراجعة كتاب هوية بأربعين وجها لداريوش شايفان. تبين ، 11 (41).